فأسأل الله ما طلبت إليهم وأرج فضل المقسم العواد[1]

إن رفض التكسب بالمال لأنه إذلال لنفس صاحبه والدعوة إلى توكيد كون الرزق من الله تعالى فكرة ما أدخلت فن المديح إلّا بسبب المعتقد الإسلامي وإذا لم يكتب لهذه الدعوة الشيوع فإن وجودها بحدّ ذاته يمثل نقطة تحوّل في نظرة الشاعر أو المجتمع إلى المديح التكسبي.

وهكذا نجد تطور معاني المديح واختلاف نظرة الشعراء إليه باختلاف مواقفهم من الممدوح مع استمرار عناصر أخرى تمثل استمراراً لقيم يوافق عليها المجتمع الإسلامي.

قصيدة وتحليل

قال عدي بن الرقاع العاملي يمدح عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم[2]:

١- لمن رسم دار كالكتاب المنمنم
بمنعرج الوادي فويق المهزم[3]

٢- عفت بعد أشباح الأنيس كأنما
الشخوص بها خيلان حرض وعجرم[4]

٣- توهمتها من بعد ما قد خلا لها
أهلة حول بعد حول مجرّم[5]

---

(١) شعر الخوارج: ٢٠.

(٢) ديوان شعر عدي بن الرقاع العاملي تحقيق نوري القيسي، حاتم الضامن ١٩٨٧ بغداد، ص ١٢٨، فما بعدها.

(٣) الرسم: الأثر، ورسم دار: بقايا آثارها، المنمنم: المحسن الموشى، منعرج الوادي، فويق المهزم: اسما موضعين.

(٤) أشباح جمع شبح ويريد به الشخص ذاته. خيلان جمع خال وحرض: نبت هو الأشنان، والعجرم: شجر تتّخذ منه القسيّ.

(٥) الحول: العام، مجرّم: تام قد انقضى.

٤ ـ منازل أتراب تبدلن بعدها
بلاداً فبادت غير نوي مهدّم[١]

٥ ـ سمعن بغيث رابع فتبعنه
على كل موّار الملاط عثمثم[٢]

٦ ـ طوال القرى تحكي خطاه إذا مشى
تجاوب أحناء الغبيط المقوّم[٣]

٧ ـ تخطين بطن الستر حتى جعلنه
على الغرب سير المنتوي المتيم[٤]

٨ ـ فلما تجاوزن الحصيدات كلّها
وخلفن منها كل رعن ومحزم[٥]

٩ ـ دأبن لخيشوم البياض الذي له
حفظا (٥) أبيات من التاج إكليل كتاج المسوّم[٦]

١٠ ـ مدحت أمير المؤمنين الذي اصطفى
لنا ربنا فضلاً على كل مسلم

١١ ـ بنى الحمد فيه فارتقى في مشرف
رفيع من البنيان لم يتثلم[٧]

---

(١) أتراب جمع ترب وهن اللدّان أو البنات في أعمار متقاربة.
(٢) غيث رابع: غيث في الربيع، موار: صفة للفرس والبعير سريع الحركة والملاط الجنب، والعثمثم الكثير اللحم.
(٣) طوال القرى أي طويل القرى، والقرى الظهر ويمدح البعير بطول الظهر، ويكره ذلك من الفرس. أحناء الغبيط عيدانه واحدها حنو، والغبيط الرحل يشبه وقع أخفاق البعير على الأرض وصك الحجارة بعضها ببعض بصوت أحناء الغبيط.
(٤) الستر: واد، المنتوي: صاحب النية، المتيمم القاصد.
(٥) الحصيدات اسم موضع، الرعن: أنف الجبل، والمحزم: منقطع أنف الحبل.
(٦) خيشوم: أقصى الأنف، الإكليل يريد به ما أحاط به من الرمل، المسوم المعلم وهو الفارس الذي يعرف بعلامة يعرف بـ ا في الحرب.
(٧) مشرف مكان عالٍ، لم يتثلم لم يتهدم.

١٢ ـ فما في بني حواء فرع يفوقه
بفاضلة دون النبي المكرّم[١]

١٣ ـ فما كان باب الحمد حتى لقيته
بأخرس مكنون ولا بمصتم[٢]

١٤ ـ جمعت اللواتي يحمد الله عبده
عليهن فليهنأ لك الخير وأسلم

١٥ ـ فأولهن البرّ والبر غالب
وما بك من عيب السرائر يعلم

١٦ ـ وثانية كانت من الله نعمة
على المسلمين أنه خير منعم

١٧ ـ وثالثة أن ليس فيك هوادة
لمن رام ظلماً أو سعى سعي مجرمِ[٣]

١٨ ـ ورابعة أن لا يزال مع التقي
تحث بميمون من الأمر مبرمِ[٤]

١٩ ـ وخامسة في الحكم إنك تنصف
الضعيف وما من علم الله كالعمي

٢٠ ـ وسادسة أن الذي هو ربنا
اصطفاك فمن يتبعك لم يتندم

٢١ ـ وسابعة أن المكارم كلها
سبقت إليها كل ساعٍ وملجمِ

٢٢ ـ وثامنة في منصب الناس أنه
سما بك منهم معظم فوق معظم

---

(١) يقال للرجل الشريف فرع، وفرع كل شيء أعلاه. فاضلة: خصلة شريفة.

(٢) مكنون: مستور، ومصتم: مردود.

(٣) الهوادة: اللين، وأجرم: أتى ذنباً، يريد أنّك لا تلين مع من يريد الظلم أو الاعتداء وإنما تردّه عن غيه.

(٤) ميمون: ذو يمن، مبرم: محكم.

٢٣ ـ وتاسعة أن البرية كلها
يعدون سيباً من إمامٍ متمم[١]

٢٤ ـ وعاشرة أن الحلوم توابع
لحلمك في فضل من القول محكم[٢]

٢٥ ـ جواد فلا ينفك يرفد بابه
أولو حاجة مستبشرون بمنعمِ

٢٦ ـ فقد جعلت كتابه في مؤونة
مفاتيح من معروفه المتقسمِ[٣]

٢٧ ـ إذا ما حبا وفداً أتاهم بمثله
ركوب الموامي بالمطيّ المخزّمِ[٤]

٢٨ ـ تقيس بأيديها الفلاة كأنما
مذارع أيديهن أذرع مأتمِ[٥]

٢٩ ـ إذا شئت أن تلقى فتى البأس والندى
وذا الحسب الرابي التليد المقدمِ[٦]

٣٠ ـ فكن عمراً تأتي ولا تعدونّه
إلى غيره واستخبر الناس وأفهم

٣١ ـ فتى حجبت عنه الفواحش كلها
فما اختلطت منه بلحمٍ ولا دمِ

٣٢ ـ غدا طيب الأثواب ينفح عرضه
مبيناً لعين الناظر المتوسم[٧]

---

(١) السيب: العطاء، متمم: أي مكمل للمعروف.
(٢) الحلوم: العقول، يريد إنك راجح العقل محكم القول.
(٣) يريد أن كتابه يتعبون لمحاولتهم تطبيق العدل الذي يريده في العطاء.
(٤) حبا: أعطى، الوفد: جمع الوفود، المومأة: هي الفلاة.
(٥) تقيس: تذرع.أفحوص القطا: موضع البيض، عاجها: عطفها، المعرّس: الموضع الذي نزلوا فيه، والمثوى: المقام، شبه آثار أقدامها بأفاحيص القطا أو النساء الممتدة إذا لطمن في مأتم.
(٦) الندى: السخاء، الرابي: الزائد. التليد: القديم.
(٧) طيب الأثواب: نقي العرض بريء من الدنس، المتوسم: المتفرس.

٣٣ ـ شديداً على ذي الضغن حين يريبه

دفوعاً عن المستضعف المتهضم[١]

٣٤ ـ كأن هلالاً واضحاً فرجت له

شماريخ مزن رابعٍ متغيمِ[٢]

٣٥ ـ على منبر الوادي المقدس كله

يروح بقول ثابت المتكلم

٣٦ ـ أغر محيا بالإمارة وجهه

من المنجزين الحمد غير مذمم

٣٧ ـ نماه إلى علياء يهلك دونها

تكاليف ذي المأثورة المتكرم[٣]

٣٨ ـ ثلاثة آباء له كلهم بنى

تماماً وملكاً ثم لم يتصرم

٣٩ ـ ملوك يرون العدل حقاً عليهم

حسان الوجوه يهتدي بهم العمي

٤٠ ـ فكانوا لنا نوراً بإذن الذي له

علينا أياد من فضولٍ وأنعم

٤١ ـ رأونا فولوا أمرنا أتقياءنا

وما علمنا أننا لم نعلم

٤٢ ـ فهذا ثنائي صادقاً غير كاذب

عليهم ومن لم يقض بالحق يندم

---

(١) المتهضم: المنقوص من حقه، المستذل. والهضم: أصله الكسر.

(٢) شماريخ السحاب: أعاليه، والمزن السحاب الأبيض، ورابع مطر الربيع يشبهه بالهلال الذي بدا من خلال السحاب الممطر.

(٣) نماه: أي رفعه، علياء: شرف رفيع. التكاليف: ما يتكلفه ويتجشمه. المأثورة: الأخلاق التي تؤثر.

التحليل:

عدي بن الرقاع العاملي شاعر أموي مجيد له ديوان حافل بشعر المديح - مديح الخلفاء خاصة - وإذا كان الأمويون قد شجعوا الشعراء على المديح بعد ما استقرّت دعائم الدولة العربية الإسلامية فإن كثيراً من الشعراء - إن لم يكن معظمهم - قد قالوا فيهم مديحاً، حتى أولئك الذي عرفت عنهم مواقف سياسية معيّنة، إلا أننا نستطيع أن نعدد عدداً من الشعراء ممّن انصرفوا إلى المديح، واستنفذوا القول فيه، ويبرز في مقدمتهم شاعران هما الأخطل[1] وعدي بن الرقاع العاملي، اللذن يمثلان الشعراء الرسميين أو الداعين إلى تأييد السلطة لانصرافهما إلى المديح في معظم قصائدهما، ومحاولتهما الدفاع عن موقف الخلافة وتمجيد المآثر بما يرفع مكانة الخليفة في أعين الناس ويرد على مناوئيه.

لقد كان عدي بن الرقاع مقدماً عند بني أمية مداحاً لهم خاصة الوليد بن عبد الملك، وقد قيل إنه دافع عن الخلافة وأبدى إيمانه بالوفاء للدولة العربية، ووضع نفسه في خدمة أهدافها، والوقوف بحزم تجاه كل الحركات التي حاولت أن تقف بوجهها[2].. وقد دفعه هذا الوفاء إلى اقتصار شعره على قادة الدولة وخلفائها خاصة أنه عاصر خلافة عبد الملك بن مروان وامتدحه وامتدح ابنه الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز.

والمتصفّح لديوان عدي يجد فيه مطوّلات في المديح فقصائده في الوليد بن عبد الملك نجد فيها ما تجاوزت الخمسين بيتاً[3]، وله قصيدة في مديح عمر بن الوليد بن عبد الملك تقع في ستين بيتاً[4].

---

(١) يراجع في هذا كتاب الأخطل الكبير للدكتور فخر الدين قباوة: بيروت ١٩٧٩.
(٢) ديوانه - المقدمة ص ٩.
(٣) ديوانه: ٧٣، ٨٣، ٩٦، ١٢١، ١٥٠، ١٦٥، ومواضع أخرى.
(٤) ديوانه: ١٠٨.

أجمل مدائحه في الخليفة عمر بن عبد العزيز، وقد ذكر أن الأصمعي كان يسمي قصيدته التي مطلعها:

أم انتابنا من آخر الليل زائر أهمٌ سرى أم عاد للعين عائر

كان الأصمعي يسمي هذه القصيدة بالحولية، وذلك لما روي من أن عدياً كان قد حبرها في سنة[1] كما بدأت قصيدة عدي بن الرقاع في مدح الخليفة عمر بن عبد العزيز

أما قصيدته التي اخترناها فهي تمثل أنموذجاً جيداً بين قصائد مديحه وهي من ناحية تمثّل عودة القصيدة العربية إلى ربوع القصائد التي رست دعائمها في العصر الجاهلي، وهي من ناحية أخرى صورة لقصيدة المديح الجديدة التي تمثّل العصر الأموي بظروفه وأحداثه، وفكره.

وإذا كان صوت المديح قد خفت في عصر صدر الإسلام فإن ما أثر عن الشعراء الإسلاميين من شعر مديح لم يكن تسجيلاً لبطولات أشخاص أو مآثرهم قدر كونه تمجيداً للجماعة الإسلامية والدعوة الإسلامية، ولذلك لم تطل قصيدة المديح عصر صدر الإسلام وإنما كانت جزءاً من شعر الدعوة الذي فيه تمجيد لحامل الرسالة ﷺ ومدح لأصحابه. وحين استقرّت الدولة الأموية شجّع الخلفاء الأمويون الشعراء على المديح فعاد هؤلاء إلى التراث الشعري الجم الذي خلفته القصيدة العربية، وراحوا يستقون منه مقاييسهم في إبداع القصيدة المطوّلة التي تبدأ ببداية معروفة تشد انتباه السامع لينتقل بعدها إلى غرض آخر ممهّد لها أيضاً، الوقوف على الأطلال، أو مناشدة الصحب للبكاء على الأحبّة ليخلص بعد هذا إلى التسلّي عن الهمّ برحلة توصله أخيراً إلى الممدوح.

ويبدي عدي في مقدماته الطللية محتذياً حذو القصيدة الجاهلية، بصورها وأخيلتها.

---

(١) ديوانه ص ١٩٧.

الإطلاع والقراءة

الأبيات ١ ـ ٤:

يتحدّث فيها عن وقوفه في الديار التي إنمحت آثارها إلّا بقايا تذكره بالكتاب المنمم وهذا تشبيه سبق أن أورده الشعراء في العصر الجاهلي وكرره من بعدهم الشعراء التقليديون. وأن هذه الديار قد درست آثارها بعد رحيل أهلها عنها فيأتينا بتشبيه آخر هو تشبيه في هذا إلى لونه الأسود لأنه يريد بقايا الرماد والنار مثلاً.

وأما سبب وحشة هذه الآثار فلأن أهلها ارتحلوا عنها وتركوها قبل أعوام من ورود الشاعر مرة أخرى عليها، ومع ذلك فهو ما يزال يتذكّر منازل الفتيات اللاتي كنّ فيها.

الأبيات ٥ ـ ٩:

أما سبب رحلة الفتيات فهو جزء من رحلة أهلهن، أنه تتبع مواطن الماء والكلأ ولكنه نسب الرحلة إلى الفتيات فقال (سمعن) (وتبعن) ولينقلنا إلى صورة رحيلهن على الإبل ويسترسل بعدها في وصف الإبل وظهورها الطويلة ويشبه وقع أقدامها أو ما يصدر عنها من صوت حين تبرك بأصوات عيدان الرحل إذا حرك. وحين تتجاوز النوق أسماء المواضع التي ذكرها الشاعر تصل إلى الخليفة الممدوح.

والمعروف في القصائد التقليدية أن وصف رحلة الحبيبة تمكّن الشاعر من الانتقال إلى غرض الغزل إذ أنه يبدي حزنه على الفراق فيتذكر الحبيبة ويتغزّل بها فتهيج عواطفه، وتتأزم نفسيته وتضطرم لواعج الحب فيه فيبحث عن السلوّ والنسيان ويركب ناقته ضارباً في الصحراء لينتقل بعدها إلى وصف الممدوح الذي يستحق أن يحطّ الرحلة عنده بعد سفر مضنٍ أما شاعرنا عدي فإنه تجاوز هذه الصورة التقليدية، فيختلط علينا أول الأمر من هو المرتحل؟ أهم الأحبّة الذين تركوا الديار؟ أم الشاعر!! لأنّ عدياً وصف

سبب رحلة الفتيات اللاتي أقفرت ديارهن بانه بسبب سماعهن بوجود غيث مريع فتبعنه، لكن رحلة النوق التي وصفها الشاعر تنتهي بالممدوح، وبذا تكون رحلة الأحبّة ورحلة الشاعر واحدة، السماع بوجود غيث مربع هو إشارة إلى كرم الخليفة وأن من يتبعه يجد عنده الخير والعطاء.. وبذا أتى عدي بصورة للرحلة رحلة الممدوح مخالفة لما جاء به الشعراء، لأنها رحلة فريدة رحلة الأحبة ورحلته هو إلى الممدوح المعطاء.

في هذه الأبيات يبدأ عدي بمدح الخليفة ولكنه فعل ما فعل عبيد الله بن قيس الرقيات حين وصف عبد الملك بالسيادة ورمز إليها بلبس التاج، إلا أن عدياً لم يكتف بصورة التاج رمز الملك بل تبعها بكونه أمير المؤمنين الذي اختاره الله، وفضله على كل الناس لخلقه ومكارمه، ولكثرة ما يمتدحه الناس فيه من خصال الحمد فإنه قد بنى لنفسه مجداً رفيعاً، فما في بني حواء من يفوق فضله ونسبه إلا الرسول الكريم ﷺ، وأنه قد جمع مكارم الأخلاق والصفات المثلى التي ترضي الله أولاً (جمعت اللواتي يحمد الله عبده) وهي صورة تليق بالخليفة التقي الذي يجب أن يرضي الله أولاً، ويرضي الناس عنه بسلوكه القويم وعدله.

الأبيات من ١٥ ـ ٢٤:

هنا يعدد الشاعر فضائل الخليفة، وكأنه يريد أن يوثقها بالتعداد والحساب مستخدماً نص العدد، أولاً، ثانية، ثالثة... إلى أن يبلغ العاشرة، ومع أنه بعد تعداد الخصال العشرة لم يتوقف عن إيراد غيرها إلا أنه ترك طريقة العدّ والحساب بسبب ثقل الأعداد المركّبة أو أعداد العقود وعدم صلاحيتها للغة الشعريه كما صلح تعداده الأول.

إن تعداد مآثر الممدوح بدت أقرب إلى العدّ التوثيقي منها إلى رسم الصور المادحة المتقننة.

أولاً: معروف ببره وحسن سره وعلانيته.

ثانياً: أنه نعمة من الله تعالى حين اختاره خليفة للمسلمين ولا ينعم الله نعمة إلَّا وفيها الخير الكثير العام.

ثالثاً: أنه يحد الظالم والمعتدي ويمنعهما عن غيرهما.

رابعاً: أنه مع تقواه يصحبه الخير والتوفيق في كل أمر يبتّ فيه برأيه.

خامساً: أن الله قد علمه العدل، وهدى طريقه إليه، لذلك فهو ينصف الضعيف المظلوم.

سادساً: أن الله قد اصطفاه لتولي الخلافة لسلوكه التقي، وبذا فإن من يتبعه لا يندم لأنه يجد الحق والخير عنده.

سابعاً: أنه سبّاق للمكارم.

ثامناً: أن مكانته في النفوس هي فوق مكانة الآخرين وهو بهذا يشير إلى ما عرف به هذا الخليفة من حسن سيرة وصلاح قبل توليه الخلافة.

تاسعاً: أن الناس كلهم يأملون الخير فيه.

عاشراً: أنه ذو عقل راجح وأحكامه عادلة.

الأبيات من ٢٥ ـ ٢٨:

يصف الشاعر عدي ممدوحه بالكرم والإنعام على المحتاجين وأنه في هذا غير مبذر ولا محاب لجماعة دون أخرى وإنما هو معطاء قدر ما يقتضيه الحق والعدل فالعطاء للجميع وهنا يأتي عدي بصورة فريدة هي أن ممدوحه قد أتعب موظفيه (كتّابه) المكلفين بتدوين أسماء المحتاجين، أتعبهم في شدة طلبه العدل في توزيع العطاء والخير للناس جميعاً والبيت من ناحية أخرى يشير إلى مهنة الكتابة وكونها وظيفة يعين من يتولاها الخليفة على تسيير أمور الدولة.

الأبيات ٢٧ ـ ٢٨ فما بعدها:

ينكر عدي الوفود التي تقدم إلى دار الخلافة طالبة عطاء الخليفة وكرمه، ولكنه هنا يسترسل في وصف الرحلة. رحلة الوافدين ـ وكأنه بهذا يعوّض عن وصف رحلته هو التي اجتزأها أول القصيدة.

الأبيات ٢٩ ـ ٤٢:

يعود الشاعر إلى وصف شمائل الممدوح، وهي شمائل تخص خير الدنيا والآخرة لأن الخليفة جمع الصفات المادحة التي يتمناها الناس في أي ممدوح مع الصفات المادحة التي يجب توافرها في المؤمن التقي، وفي من يتولى أمر المسلمين، فهو قد حجبت عنه الفواحش نقي السريرة، نقي العرض، بريء من الدنس، قوي على الأعداء مدافع عن المظلومين، منزلة مقدس كريم لما يصدر فيه من أحكام عادلة، نسبه شريف، أباؤه خلفاء عرفوا بالعدل وهنا إشارة إلى جد الخليفة عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل عمر وأخيراً يختم الشاعر قصيدته كونه مادحاً للخلافة على سبيل تثبيت الحق وتكريم من يستحق التكريم وأنه صادق في هذا الثناء، والمديح.

ونستطيع القول من خلال هذه القصيدة وقصائد عدي الأخرى أن عدياً كان بحق شاعر الأمويين المدافع عن وجهة نظرهم المحاول نشر الدعوة إلى نصرتهم وتأييدهم من خلال ما سطره من مآثر ومثل ترفعهم في أعين الناس، ومن خلال ردّه على مناوئيهم أو الخارجين عليهم، ويقف عدي هو والأخطل شاعران يمثلان الشعر الرسمي الذي اتّخذ المديح إطاراً له[1].

٢ ــ الهجاء:

الهجاء مثل المديح في تصويره لقيم المجتمع، فسلب المهجو منها،

---

(١) حذفنا من النص عشرة أبيات من وصف رحلة الوافدين وأبقينا المديح الخاصة بالممدوح، مع تسلسل الأبيات.